اليد الخفية أو (آلية عمل السوق الحرة)(*)

الباحث: باور أحمد حاجي
(طالب دكتوراه)
جامعة الموصل
كلية الإدارة والاقتصاد
Duhokbawer1980@gmail.com

ISSN 2709-6475 DOI: https://dx.doi.org/10.37940/BEJAR.2023.4.4.14

تأريخ استلام البحث ٢٠٢٢/١٠/٧ تأريخ قبول النشر ٢٠٢٢/١١/٢٦ تأريخ النشر ٢٠٢٣/٤/٣٠

المستخلص

نشر آدم سميث في عام (١٧٥٩م) أول كتبه في الفلسفة (نظرية المشاعر الاخلاقية) وفيها عرض أفكاره حول الفرد والمصلحة الذاتية وإنسجامها مع المصلحة العامة، وفي عام (١٧٧٦م) أصدر كتابه (بحث في أسباب ثروة الأمم) الذي استمر يعمل فيه عشر سنوات.

اعتقد سميث بأن الدافع الشخصي للفرد هو أكبر ضمان للمصلحة العامة، فهناك عبارتان له في هذا الصدد يقول في الأولى: نحن لا نحصل على ما نريد لعشائنا من القصاب أو من الخباز أو من بائع البيرة على سبيل العمل الخيري، بل من باب مصلحتهم هم، نحن لا نأتي إليهم من باب إنسانيتهم بل من باب حبهم لذاتهم، ولا نتكلم معهم عن أشياء، بل عن فائدتهم. وهكذا فإن النظام الإقتصادي عند سميث يقوم على النظام الطبيعي الذى تحكمه تلك الغرائز الشخصية، فكل شيء على ما يرام طالما كان هناك قبولاً وقناعة ورضا بين أطراف النشاط الاقتصادي. أما العبارة الثانية فإنه يقول فيها: بما أن كل فرد يسعى قدر استطاعته لأن يوظف رأسماله في دعم الأعمال الداخلية، ومن خلال ذلك توجيه تلك الأعمال بحيث يكون إنتاجها بأكبر قيمة، فإن كل فرد في المجتمع يعمل لجعل الإيراد السنوي للمجتمع بأسره كبيراً على قدر استطاعته. فهو بهذه الحالة لا يفكر إلاّ في كسبه الشخصي، وهو بهذه الحالة وفي حالات كثيرة غيرها منقاداً بيد خفية لتعزيز غاية لم تكن قط في نيته.

فمفهوم اليد الخفية هي الوسيلة التي تدار بها السوق من خلال العرض والطلب ولا تحتاج إلى تدخل حكومي من أجل الوصول إلى مرحلة التوازن الداخلي في السوق، فإن آلية النظام الطبيعي هذه كفيلة بأن تنظم نفسها دون الحاجة لأي تدخل خارجي.

ولكن على الرغم من سلاسة فكرة اليد الخفية وإنسجامها، إلاّ أن هذه الفكرة لم تخلوا من الاعتراضات عليها من قِبل جلّ من المفكرين الاقتصاديين الكبار أمثال الأستاذة بجامعة كامبريدج إيما روتشيلد، التي تصورت أن آدم سميث حينما قدم فكرة اليد الخفية فإنه استخدمها كنكتة مثيرة للسخرية، بل ذهبت أكثر من ذلك حين بيّنت بأن هذه الفكرة هي فكرة غير سميثية، وأن سميث استعار التعبير من شكسبير. كما اعترض المؤرخ الاقتصادي كارل بولانيي على مسألة السوق كآلية مستقلة تستطيع أن تظم النشاط الاقتصادي دون حاجة لتدخل من القوى الخارجية. ومنذ ذاك الوقت صار علماء الاقتصاد الغربيون يعلنون أن اقتصادهم هو اقتصاد مختلط، بحيث تمارس المؤسسات العامة والخاصة معاً نوعاً من التحكم في الاقتصاد، فلا يوجد الآن من علماء الاقتصاد إلاّ القليل منهم؛ من يدعي أن السوق وحده يستطيع بصورة ذاتية ومستقلة أن ينظم النشاط الاقتصادي.

الكلمات المفتاحية: الاقتصاد، اليد الخفية، السوق، آدم سميث.

مجلة اقتصاديات الأعمال
المجلد (٤) العدد (٤) ٢٠٢٣
الصفحات: ٢٤٥-٢٥٤

(*) البحث مستل من أطروحة دكتوراه.

The invisible hand
or (free market mechanism)

Abstract

Adam Smith published in the year (1759 AD) his first book on philosophy (The Theory of Moral Sentiments), in which he presented his ideas about the individual and self-interest and their harmony with the public interest.

Smith believed that the personal motive of the individual is the greatest guarantee of the public interest. There are two phrases of his in this regard. He says in the first: We do not get what we want for our dinner from the butcher or from the baker or from the beer seller as a matter of charitable work, but rather out of their interest, we do not come to them out of their humanity, but out of their self-love, and we do not talk to them about things, but about their usefulness. Thus, Smith's economic system is based on the natural system that is governed by those personal instincts. Everything is fine as long as there is acceptance, conviction, and satisfaction between the parties to the economic activity. As for the second phrase, he says in it: Since every individual strives as much as he can to employ his capital in supporting the internal works and through that directing these works so that their production is of the greatest value, then every individual in the society works to make the annual revenue of the whole society as large as he can. In this case, he only thinks of his personal gain, and in this case, and in many other cases, he is led by an invisible hand to promote a goal that was never his intention.

The concept of the hidden hand is the means by which the market is managed through supply and demand and does not need government intervention in order to reach the stage of internal equilibrium in the market. This mechanism of the natural system is capable of organizing itself without the need for any external intervention.

But despite the smoothness and harmony of the idea of the invisible hand, this idea was not devoid of objections to it by most of the great economic thinkers, such as the University of Cambridge professor Emma Rothschild, who imagined that Adam Smith when he introduced the idea of the invisible hand, he used it as a ridiculous joke, but went more From that when I showed that this idea is a non-Smithian idea, and that Smith borrowed the expression from Shakespeare. The economic historian Karl Polanyi also objected to the issue of the market as an independent mechanism that can regulate economic activity without the need for intervention from external forces. Since that time, Western economists have been declaring that their economy is a mixed economy, in which public and private institutions together exercise a kind of control over the economy. There are now few economists; Whoever claims that the market alone can independently and independently regulate economic activity.

Key words: Economics, The Invisible Hand, The Market, Adam Smith.

المقدمة:

تعد فكرة اليد الخفية التي آمن بها آدم سميث، أحد أهم الأعمدة التي يستند عليها النظام الرأسمالي الكلاسيكي، فلم يكن سميث ببعيد عن التوجه الفكري الذي صار عليه كل من جاليليو في دوران الأرض حول الشمس، ونيوتن في اكتشافاته حول نظرية الجاذبية وقوانين الحركة الطبيعية وحساب التفاضل والتكامل، إذ تبنى سميث في تفكيره العلاقة السببية بين الأشياء، أي العلاقة التي تعتمد على السبب والنتيجة، ولكن بدلاً من أن يركز على الكواكب والمسائل العلمية، أنصب تفكيره على الناس[١].

وقد طرح آم سميث في كتابه (ثروة الأمم) سؤالين اثنين: كيف يستطيع المجتمع الذي يكون كل فرد فيه مشغولاً بمصالحه الخاصة أن يحافظ على تماسكه، وألاّ يتساقط بفعل عوامل الطرد المركزي؛ وما الذي يجعل الإنشغالات التي يقوم بها الفرد وهو بصدد تحقيق مصالحه الخاصة، تتواءم مع متطلبات المجتمع الكبير؟ خاصة في حالة مجتمع حر لا توجد فيه سلطة مركزية للتخطيط الاقتصادي، أو حكومة قهرية تتحكم في عمليات التراخيص والتصدير والإستيراد والتوزيع والتسعير؟[٢]. إن محاولة الإجابة على هذه الأسئلة هي التي انتهت به إلى صياغة قانون (اليد الخفية) للسوق، الذي صار قانوناً مرجعياً تفسر به حركة اقتصاد السوق الحر، وهذه الأسئلة ذاتها ستكون محل بحثنا.

١. أهمية البحث:

تكمن أهمية هذه الدراسة؛ في أنه ما زال الكثير من الاقتصاديين اليوم يؤمنون بفكرة اليد الخفية، وأنها الموجّه الرئيس للنشاط الاقتصادي، على الرغم من تراجعها في أوساط المفكرين الاقتصاديين المعتبرين منذ أواخر القرن التاسع عشر؛ الذين يعلنون أن اقتصادهم هو اقتصاد مختلط، بعيداً عن الإدعاء بأن السوق وحده يستطيع بصورة ذاتية ومستقلة من أن ينظم النشاط الاقتصادي. فتكمن أهمية هذه الدراسة في التركيز على المسار الذي تشكلت على وفقه هذه الفكرة، والتي عبّرت عنها المدرسة الكلاسيكية بمقولة (دعه يعمل، دعه يمر).

٢. مشكلة البحث:

لا يؤمن المفكرون الاقتصاديون الرأسماليون اليوم بفكرة أن السوق تعمل بصورة آلية مستقلة تعالج نفسها بنفسها دون تدخل من أحد، ومن الصعب أن ترى سياسة اقتصادية تستند على هذه الفكرة في الوقت الحاضر؛ أي فكرة اليد الخفية التي نادى بها آدم سميث ومن بعده اقتصاديوا المدرسة الكلاسيكية. لذلك تأتي مشكلة هذه الدراسة في بيان أسباب إضمحلال فكرة اليد الخفية من النظرية الاقتصادية الحديثة، على الرغم من ايمان بعض الاقتصاديين بها.

٣. فرضية البحث:

تنطلق الدراسة من الفرضية التي تنص: أن فكرة اليد الخفية المتمثلة بوجود قوى السوق (الخفية) التي تحرك قوى العرض والطلب على السلع الموجودة داخل السوق الحرة، حتى الوصول تلقائياً إلى حالة التوازن، هي فكرة "رومانسية"، لكون أن المجتمع لم يكن في يوم من الأيام قطاعاً تابعاً للاقتصاد، بل كان الاقتصاد دائماً قطاع ملحق بالدين والسياسة والعلاقات الاجتماعية.

٤. منهجية البحث:

اعتمد الباحث في دراسته على المنهج التحليلي والمنهج التاريخي، في وصف آلية عمل حرية السوق؛ متمثلة بفكرة اليد الخفية، بهدف الوصول إلى إستنتاج حقيقتها والأسباب الكامنة التي أدت إلى أن تخلى الاقتصاد الرأسمالي المعاصر والابتعاد عن هذه الفكرة.

٥. خطة البحث:

تم تقسيم الدراسة إلى ثلاثة مباحث: تناول الأول منها نبذة عن حياة آدم سميث، فيما تعرض المبحث الثاني إلى شرح قانون اليد الخفية للسوق، بينما تم تخصيص المبحث الثالث لمناقشة الإعتراضات على قانون اليد الخفية، وفي الختام تم إستعراض الإستنتاجات والمقترحات الدراسة.

المبحث الأول: نبذة عن حياة آدم سميث:

لو أن أحد قام بزيارة إلى انجلترا في الستينات من القرن الثامن عشر لكان من المحتمل أن يسمع عن شخص يعرف بإسم الدكتور سميث الأستاذ في جامعة جلاسجو، إذ كان الطلاب يقطعون المسافة كلها قادمين من الروسيا ليستمعوا إلى محاضراته التي تنم عن الجهد والعمق وإن كانت حماسية، وفضلاً عن إنجازاته المدرسية كان معروفاً بأنه شخصية تلفت النظر نوعاً ما ، فاشتهر مثلاً بشرود الذهن، ومن ذلك أنه سقط مرة في إحدى الحفر التي تستخدم في عملية الدباغة أثناء سيره، وهو منهمك في بحث جاد مع صديق له، ولكن هذه النزوات الشخصية المفاجئة لم تؤثر في قدراته العقلية، فقد كان الدكتور سميث في طليعة فلاسفة عصره[٣].

ولد آدم سميث في عام ١٧٢٣م بمدينة كيركالدي في اسكتلندا، وكان والده محصلاً للرسوم الجمركية، إذ كان يؤمن بالمذهب المركنتلية، التي هاجمها ابنه دون رحمة، وحين بلغ الرابعة من العمر وقع حادث غريب للغاية، إذ اختطفته جماعة من الغجر كانت تمر بالجهة، وبفضل جهود عمه التي بذلها، (توفي والده قبل أشهر من ولادته) أمكن تعقب الغجر ومطاردتهم فما كان منهم في فرارهم، إلاّ أن ألقوا بآدم الصغير على قارعة الطريق[٤]، ولمّا كان سميث طالباً مجتهداً التحق بجامعة جلاسجو في سن الرابعة عشر، ونال منحة فيما بعد بكلية باليول في أكسفورد، ومثل معظم الطلاب الجامعيين في ذلك الزمان قرر سميث أن يدرس اللاهوت والتحق بالإكليروس، ومثل كثيرين من طلاب عصره اشتكى سميث من أساتذته وتوجه بنقد عنيف للأساتذة العموميين، وقال: إن هؤلاء الأساتذة وقد انعدم لديهم الحافز لم يكونوا يبذلون إلاّ أقل الجهد، ولا يؤدون إلاّ أقل العمل، وكان من رأيه أنه من الأفضل كثيراً أن تدفع أجورهم وفقاً لعدد الطلبة الذين يجتذبونهم إلى دروسهم، والأمر الأكثر أهمية أن سميث اشتكى لزملائه من أن مسؤولي الكلية صادروا نسخته من مؤلف ديفيد هيوم (رسالة في الطبيعة البشرية)، فمع أنه كان مسموحاً لسميث بأن يقرأ كل الأعمال اليونانية واللاتينية الكلاسيكية، فإنه منع من أن يقرأ أحد أشد كتب عصره أهمية، لكن مع هذه القيود الأكاديمية تأثر سميث بنزعة الشك لدى هيوم[٥].

ومن أكسفورد عاد سميث إلى جامعة جلاسجو في عام ١٧٥١ وكان في الثامن والعشرين من العمر، إذ عرض عليه كرسي مادة المنطق، ثم منح كرسي الفلسفة الأخلاقية بعد ذلك بوقت وجيز، وهنا نشر في العام ١٧٥٩ كتاب (نظرية المشاعر الأخلاقية) الذي أحدث ضجة كبيرة في أوساط الفلاسفة الإنجليز، وفي العام ١٧٦٣ استقال من الجامعة ليصبح المعلم الخصوصي لدوق باكليتس الشاب، وليصحبه في سفرياته في أرجاء القارة الأوروبية، إذ كان سميث يساعد الدوق الشاب في

أشياء مثل إتقان البولندية وحضور الحفلات البذخة، وكان يحصل على أجر قدره 300 جنيه استرليني سنوياً بخلاف النفقات، و300 أخرى سنوياً كمعاش وهو ما يوازي تقريباً ضعف دخله السابق، وفي سويسرا زار سميث الكاتب والفيلسوف الفرنسي فولتير (١٦٩٤- ١٧٧٨) في بيته الريفي الجميل، وقد قال عنه فولتير: سميث رجل رائع، وليس لدينا من يوازيه[٦].

وقد بدأ سميث كتابه (بحث في طبيعة وأسباب ثروة الأمم) في فرنسا واستمر يعمل فيه عشر سنوات، ولقى الكتاب بعد نشره نجاحاً لا مثيل له، وقد حوّل بؤرة علم الاقتصاد بعيداً عن نظرة المركنتيليين في اعتمادها على المعادن النفيسة باعتبارها ثروة، واتجه إلى انتاج السلع والخدمات باعتباره الثروة، إذ ان نمو الانتاج من السلع والخدمات يؤدي إلى زيادة ثروة الأمم، وكان سميث يعني بالثروة التدفق السنوي أو ما نطلق عليه (الناتج المحلي الإجمالي)، فيذكر: يشكل العمل السنوي عند كل أمة الذخيرة التي تمدها بأسباب الحياة ووسائل الراحة التي تستهلكها سنوياً، ويتكون هذا العمل دوماً من نِتاجه المباشر أو مما يمكن شراؤه من أمم أخرى بهذا الناتج[٧].

كما يعرّف كتاب (ثروة الأمم، ١٧٧٦) القارئ على عالم الفلسفة والسياسة والتجارة وذلك بصحبة سميث المتشكك مُتّقِد الذهن والمتفائل بالأساس كدليل، فبينما الثورة الصناعية في مهدها أشار سميث في ثقة إلى كل مشارك بها، من المزارع إلى الراهب إلى التاجر إلى وكيل الشحن، مفسراً ببراعة معنى الثورة الاجتماعية، إضافة إلى ذلك دخل سميث إلى السياسة الاقتصادية دون أن ينحاز إلى حزب أو طبقة بعينها، لا يمكن لأحد أن يتهمه بالتملق أو الغش، ومع أنه أيد في نهاية المطاف بزوغ نجم البرجوازية، فإنه حذر المجتمع من أن يخضع بسذاجة إلى تملقات البرجوازيين، وبطريقة ما كان نشر كتاب (ثروة الأمم) بمنزلة إعلان استقلال للاقتصاديين[٨].

ومن الملفت للنظر أن سميث لم يدّرس قط منهجاً اقتصادياً، بل لم يفعل أحد في عصره ذلك، فحتى القرن التاسع عشر كانت الأوساط الأكاديمية تنظر إلى الاقتصاد بإعتباره فرعاً من الفلسفة والسياسة، وفي عام ١٩٠٣ وليس قبل ذلك، أطلقت جامعة كامبريدج برنامجاً لتدريس الاقتصاد على نحو مستقل عن (العلوم الأخلاقية)، ومع ذلك قدم آدم سميث خلاصة أفكاره التمهيدية عن الاقتصاد في محاضرات حول فلسفة التشريع[٩].

المبحث الثاني: قانون اليد الخفية للسوق:

اشتهر آدم سميث بفكرة أن المصلحة الذاتية الحرة لملايين الأفراد سوف تخلق مجتمعاً مستقراً ومزدهراً دون الحاجة لتوجيه مركزي من الدولة، فمن خلال سعي الأفراد خلف مصلحتهم الذاتية البحتة؛ يقاد كل شخص بواسطة يد خفية لخدمة المصلحة العامة، يقول آدم سميث: نحن لا نحصل على ما نريد لعشائنا من القصاب أو من الخباز أو من بائع البيرة على سبيل العمل الخيري، بل من باب مصلحتهم هم. نحن لا نأتي إليهم من باب إنسانيتهم بل من باب حبهم لذواتهم، ولا نتكلم معهم عن أشياء بل عن فائدتهم ومصلحتهم[١٠].

في الحقيقة لم يستخدم آدم سميث عبارة اليد الخفية سوى ثلاث مرات في جميع كتبه، والمرة الأولى التي ذُكرت فيها اليد الخفية كانت في تاريخ سميث والتي قام باقتباسها من فقرة لعلم الفلك، إذ كان نص الفقرة تتحدث عن الناس المؤمنين بالخرافات الذين يرجعون كل الأحداث غير الاعتيادية لعمل آلهة غير مرئية:

(بين البرابرة، وكذلك في العصور الوثنية القديمة، كانت الأحداث الطبيعية غير المعتادة تنسب فقط لقوة وسلطة آلهتهم. فالحرائق النارية والسيول المائية والأجسام الثقيلة المتساقطة والخفيفة

المتطايرة بالضرورة بحكم طبيعتها الخاصة، وليس باليد الخفية لجوبيتر، كلاً كان يقبض عليها دائماً لتوظف في هذا الاتجاه).

كما يظهر بيان كامل عن القوة الاقتصادية لليد الخفية في كتاب (نظرية المشاعر الأخلاقية) حين قال:

(لا يختار الغني مما هو مكدس أمامه إلاّ أثمن ما فيه وأكثره إرضاءً له، فهو لا يستهلك أكثر من الفقير إلاّ قليلاً. وعلى الرغم مما في طبعه من أنانية وجشع، وانحسار سعيه في تحقيق ما يريحه، وأن غايته الوحيدة التي يقصدها من عمل الآلاف التي تعمل لديه هي إشباع رغباته التافهة التي لا تنقطع. فإنه يتقاسم مع الفقير كل ما تتمخض عنه التحسينات التي يبدعها. إن أمثال هذا الغني يتحركون وفقاً لإرشادات يد خفية لتحقيق التوزيع نفسه تقريباً لضروريات الحياة)[١١].

في كتابه (ثروة الأمم) ورد ذكر اليد الخفية مرة واحدة عند حديثه عن الإحتكارات فيقول سميث:

(بما أن كل فرد يسعى قدر استطاعته لأن يوظف رأسماله في دعم الأعمال الداخلية ومن خلال ذلك توجيه تلك الأعمال بحيث يكون إنتاجها بأكبر قيمة، فإن كل فرد يعمل ويجد لجعل الإيراد السنوي للمجتمع بأسره كبيراً على قدر استطاعته. وهو عموماً لا يعتزم تعزيز المصلحة العامة ولا يدري مقدار تعزيزه لها (000)؛ فهو بهذه الحالة لا يفكر إلاّ في كسبه الشخصي، وهو بهذه الحالة وفي حالات كثيرة غيرها منقاداً بيد خفية لتعزيز غاية لم تكن قط في نيته)[١٢].

يلاحظ من النقاط الثلاثة التي عرضنا حول مفهوم اليد الخفية عند سميث، أنه يبتعد كثيراً عن الفكرة الشائعة لدى الناس والتي هي في نظر الكثيرين كما يقول جون كينت جالبريت: رنين صوفي غامض أو قوة روحية توجه الناس إلى تحقيق مصلحتهم الذاتية، فاليد الخفية عند آدم سميث لم تكن إلاّ مجرد استعارة لغوية، لكون أن سميث كان أحد رجال عصر التنوير ولم يلجأ إلى أي دعم روحي لكي يثبت حجته.

ويفيد قانون اليد الخفية بأن مصالح الفرد ورغباته الخاصة تسير دون وعي أو تخطيط مسبق، في اتجاه موافق للإتجاه العام الذي تسير فيه مصالح المجتمع بأسره، وأن آلية السوق هي وحدها كفيلة بجعل الاقتصاد يسير نفسه بنفسه دون تدخل من أحد (الدولة). ولكن ما هي آلية أو قوانين السوق؟ يجيب آدم سميث على ذلك بأن: المصلحة الذاتية هي القوة الوحيدة التي تدفع الفرد ليتحرك نحو العمل؛ وأن سعي الفرد لتحقيق مصلحته الذاتية في وسط اجتماعي يعج بأفراد مماثلين يسعى كل منهم لتحقيق مصالحه الذاتية، سيتولد عنه لا محالة تنافس بين هؤلاء الأفراد، وأن هذا التنافس هو الذي سيوفر السلع التي يحتاجها المجتمع وفقاً للنوعية والمقادير المطلوبة، ووفقاً للسعر الذي يكون المجتمع مستعداً لدفعه.

ولكن ما ينبغي ملاحظته هنا وقد لاحظه آدم سميث بالفعل، هو أن مثل هذا الفرد الأناني الجشع الذي لا يسعى إلاّ لتحقيق مصالحه الذاتية وتعظيم أرباحه المادية، قد يدمر نفسه في المحصلة النهائية، كما قد يدمر المجتمع من حوله، ولكن آدم سميث يطمئننا بأن هذا لن يحدث لأن (قوانين السوق) لا تسمح بذلك، إذ أن كل من يسعى بجد لتحقيق مصلحة أو ربحاً شخصياً لن يجد السوق خالياً له يسرح فيه ويمرح كما يشاء، وإنما سيجد فيه أفراداً آخرين مثله تماماً، أو ربما أكثر منه همة ونشاطاً في تحقيق مصالحهم، وسيقع تضارب تلقائي بينهم وتطاحن شرس حول المصالح، فإذا اندفع الشخص وراء أطماعه وطموحاته بلا حساب، وأخذ يبالغ في تعظيم أرباحه ومصالحه دون مراعاة لأوضاع السوق؛ كأن يرفع من سعر سلعته، ويخفض من أجور العاملين إذا كان منتجاً، أو يرفع قيمة

عمله إذا كان عاملاً، فإن منافسيه سينتهزون تلك الفرصة، وسيفعلون عكس ما يفعله تماماً، فسيسحبون بذلك الباعة أو العمالة من بين يديه، فيخرج مذموماً من السوق، ولذلك ولكي يتفادى مثل هذا المصير فسيضطر للتخلي عن الجشع والتنازل عن الأطماع غير المعقولة، ويضبط حركاته وطموحاته بحركة السوق، فيدفع أجوراً تتناسب مع الأجور التي يدفعها منافسوه، ويبيع سلعته بسعر يتناسب مع الأسعار التي يضعها منافسوها، وهذا هو ما يقصده آدم سميث باليد الخفية للسوق التي تعمل على حفظ التوازن والإنسجام، وهو توازن لا يحدث نتيجة لوازع أخلاقي أو رادع قانوني[١٣].

على أن اليد الخفية لا تعمل فقط على ضبط حركة الأفراد المستثمرين والمنتجين، وإنما تعمل كذلك على ضبط حركة كل العناصر المكونة للإنتاج من سلع وعمالة ورأسمال وأرباح وفقاً لقانون صارم هو قانون العرض والطلب، الذي يمكن إيراده مبسطاً على النحو التالي: لنفترض أن المستهلكين أرادوا كميات من الأسماك أكبر مما هو متوفر في السوق، وكميات من البيض أقل مما هو مطروح بالأسواق، فسيترتب على ذلك أن يقبلوا على الشراء السمك، ويعرضوا على شراء البيض، فيرتفع سعر الأول ويقل سعر الثاني، ولكن مع ارتفاع أسعار السمك فسترتفع أرباح المستثمرين وأجور العاملين في ذلك القطاع، بينما تنخفض أرباح المستثمرين وأجور العاملين في مزارع الدواجن، ويترتب على ذلك أن تتدخل (اليد الخفية) فيتم تسريح كثير من العاملين في مزارع الدواجن، فيتجهوا تلقائياً إلى القطاع السمكي، حيث تمنح الأجور المرتفعة. غير أن تكاثر العمال في القطاع السمكي من جهة، وتقلصهم في قطاع الدواجن من الجهة الأخرى سيؤدي إلى ارتفاع كبير في إنتاج الأسماك، يقابله انخفاض كبير في إنتاج البيض، ولكن ما أن تزداد الكميات المطروحة من الأسماك حتى تنخفض أسعارها، أما من الناحية الأخرى فما أن تقل الكميات المطروحة من البيض حتى يكثر الطلب عليها، فتزداد أسعارها مرة أخرى وترتفع الأرباح فيها، فتتمكن بذلك من استعادة المستثمرين والعمال[١٤].

المبحث الثالث: اعتراضات على قانون اليد الخفية:

أصبح مذهب سميث في اليد الخفية رمزاً شائعاً لرأسمالية السوق الحرة تماماً كمعادلات العلوم الطبيعية، وبينما يستخدمه المدافعون عن اقتصاد السوق بطريقة إيجابية، مشخصين يد السوق بـ(الكريمة والحكيمة وبعيدة النظر) التي تحسن حياة الناس، ويسميها جورج ستيجلر (درة تاج ثروة الأمم) والمقترح الأصيل الأكثر أهمية في كل علم الاقتصاد، فإن معارضيها يصفونها بـ (اليد الغير المرئية واليد المخيفة واليد النهّابة والقبضة الحديدية للحكومة، والقدم الخفية التي تدوس على آمال الناس وتدمر أحلامهم) ويستخدم النقاد مقارنات متناقضة ليعبروا عن عدائهم للرأسمالية، فبالنسبة لهم اليد الخفية للسوق قد تكون (يداً خلفية، والمرتجفة والمعلقة والمشلولة والدموية) وهي أيضاً القبضة الدموية للمنافسة.

يعتقد معظم المراقبين أن آدم سميث استخدم اليد الخفية بطريقة إيجابية، لكن الأستاذة بجامعة كامبريدج إيما روتشيلد تعارض هذا التصور في كتابها الأخير عام ١٩٩٤ (آراء اقتصادية)، مستخدمة دليلاً غير مباشر، ملخصةً رأيها في أن ما أقترحه سميث لم يكن تقديراً لليد الخفية تحديداً، ووفقاً لها فنظرة سميث لليد الخفية تتصورها كنكتة مثيرة للسخرية، بل وتذهب لأبعد من ذلك بالإدعاء بأنها (غير سميثية، وغير مهمة بالنسبة لنظريته)، إذ إنها تقترح أن سميث استعار التعبير من شكسبير، وتشير لأن سميث كان يعرف جيداً الفصل الثالث من ماكبث Macbeth في المشهد

السابق مباشرة على الوليمة وجريمة القتل، عندما يطلب ماكبث من الظلمة أن تتستر على الجريمة التي كان على وشك إرتكابها[١٥]:

تعال، أيها الليل الشاهد
ألق وشاحك على العين الواهنة لذلك اليوم البائس
وباليد الدموية والخفية
أبطل ذلك الوثاق العظيم ومزقه إرباً
ذلك الذي يبقيني ضعيفاً

بينما يؤكد بعض الاقتصاديين أن آدم سميث طوّر مفهومه لـ(اليد الخفية) من العمل الفضائحي للطبيب النفسي ومؤلف الكراسات الهولندي برنارد ماندفيل Bernard Mandeville (١٦٧٠-١٧٣٣) المعنون (حكاية النحل)، ويحكى ماندفيل في الطبعة الأولى منها قصة خلية نحل متذمرة كانت مزدهرة، وما لبثت أن أنحدرت بسرعة إلى مستنقعات الفقر والدمار بمجرد أن تحولت للأمانة ولمجتمع أخلاقي، بينما وصف في الطبعة الثانية منها مجتمعاً غنياً قرر كل مواطنيه التخلي عن عاداتهم الإنفاقية الترفية وتجهيزاتهم العسكرية؛ فكانت النتيجة كساداً وانهياراً للتجارة والإسكان، ليستخلص ماندفيل من حكاياته أن الرذائل الفردية من طمع وبخل وتبذير تؤدي لمنافع عامة من الثروة الكبيرة، وفي اللحظة التي يتوقف فيها الشر؛ يفسد المجتمع، إن لم يتحلل كلياً.

ونستنتج من مفارقة ماندفيل أن الأنانية الذاتية تؤدي لمنفعة اجتماعية، وقد اقترض المصطلح كل من فريدريك هايك وجون مايناردكينز حكاية نحل ماندفيل، ووفقاً لهايك اكتسب سميث بعضاً من رؤاه في مسائل تقسيم العمل والمصلحة الذاتية والحرية الاقتصادية وفكرة الآثار غير المقصودة من ماندفيل، فيما استحسن كينز مشاعر ماندفيل المعادية للإدخار وإلحاحه على دور الدولة كعوامل تؤمن العمالة الكاملة في المجتمع، ومع ذلك فمن الواضح أن عمل سميث في نظرية المشاعر الأخلاقية لا يوافق ماندفيل، فقد وصف كتابه بـ(الخبيث كلياً) وطرحه بـ (الخاطئ)، فلم يوافق سميث على أن التقدم الاقتصادي يتحقق على أساس الطمع والمظهرية والأنانية المطلقة القياد، متهماً ماندفيل بكونه لا يفرق غالباً بين الرذيلة والفضيلة[١٦].

كما اعترض المؤرخ الاقتصادي كارل بولانيي (١٨٨٦-١٩٦٤م) على مسألة السوق كآلية مستقلة تستطيع أن تظم النشاط الاقتصادي دون حاجة لتدخل من القوى الخارجية (الدولة والمجتمع)، فهو لا يعترض على نظرية اليد الخفية وحدها، وإنما يعترض على مفهوم السوق ذاته الذي سار عليه الاقتصاد الغربي، والذي يفترض أن هناك نسقاً من الأسواق المترابطة والمتكاملة، التي تعمل بصورة ذاتية وتلقائية على الموازنة بين العرض والطلب، عن طريق آلية السعر، دون تدخل من الحكومة أو اعتماد على المجتمع)، كما لا يوجد سند في التاريخ لمثل هذه النظرية، إذ إن الدراسة المتأنية للتاريخ الإنساني تشير بوضوح إلى أن الاقتصاد لم يكن في يوم من الأيام نسقاً مستقلاً، وإنما هو قطاع ملحق بالسياسة والدين والعلاقات الاجتماعية، وأن المجتمع لم يكن في يوم من الأيام قطاعاً تابعاً للاقتصاد، كما يزعم الاقتصاديون الكلاسيكيون، وإنما كان الاقتصاد متوطناً بصورة دائمة في المجتمع[١٧].

ويتساءل بولانيي عن السبب الذي جعل أوروبا تتحول فجأة من حالة السلام والرفاه الاقتصادي الذي كانت عليه في الفترة من ١٨١٥-١٩١٤ إلى حرب عالمية طاحنة، ليعقبها في الثلاثينيات من القرن ذاته إنهيار اقتصادي مريع، يعود السبب في تقديره إلى التوترات التي خلقتها الليبرالية الاقتصادية في داخل الدولة الأوروبية وبين دولة أوروبية وأخرى، ويشير إلى أن بعض

المفكرين الاقتصاديين لم يفتهم أن يلاحظوا ما تولد عن الثروة الصناعية في بريطانيا من آثار تفكيكية سالبة على المجتمع (تحطيم نسيج المجتمع التقليدي للحصول على العمالة)، ولكنهم بدلاً عن الوقوف إلى جانب المجتمع وقفوا إلى جانب السوق؛ ذاهبين إلى القول بأن ما يحدث تطور طبيعي، وأن المجتمع الإنساني ينبغي أن يلحق بنظام التسيير الذاتي للأسواق، وذلك هو المضمون الأساسي لنظرية الليبرالية الاقتصادية وفقاً لما يراه بولانيي.

ثم يؤكد أن هذا الإتجاه قد قوبل برفض ومقاومة من القوى الاجتماعية التي تسعى لحماية المجتمع من السوق، غير أن المؤسسات الرأسمالية الكبرى التي تسيطر على الاقتصاد العالمي لم تأبه لأي صوت معارض، مما أدى إلى توتر بين القوى الاجتماعية داخل الدول الأوروبية وتوتر مماثل بين كل دولة أوروبية وأخرى، حتى انتهى بها ذلك إلى الدخول في الحرب العالمية الأولى وما لحقها من إنهيار اقتصادي مدمر في الثلاثينيات[١٨]. ومنذ أواخر القرن التاسع عشر بدأت نظرية (اليد الخفية) وما اتصل بها من شعار (دعه يعمل دعه يمر) في التراجع، وصار علماء الاقتصاد الغربيون يعلنون منذئذ أن اقتصادهم هو اقتصاد مختلط، بحيث تمارس المؤسسات العامة والخاصة معاً نوعاً من التحكم في الاقتصاد، فلا يوجد الآن من علماء الاقتصاد المعتبرين من يدعي أن السوق وحده يستطيع بصورة ذاتية ومستقلة أن ينظم النشاط الاقتصادي، كما لا يوجد من يظن أن الدولة وحدها هي التي يجب أن تفعل ذلك، الجميع باتوا موقنين بنوع من الاقتصاد المختلط، حيث يتكامل النشاط الاقتصادي الذي يتم في القطاع الخاص مع السياسات والتدخلات التي تقوم بها المؤسسات العامة[١٩].

الاستنتاجات والمقترحات:

أولاً: الإستنتاجات:

١. يفيد قانون اليد الخفية بأن مصالح الأفراد ورغباتهم الخاصة تسير دون وعي أو تخطيط مسبق، في اتجاه موافق للإتجاه العام الذي تسير فيه مصالح المجتمع بأسره، وأن آلية السوق هي وحدها كفيلة بجعل الاقتصاد يسير نفسه بنفسه دون تدخل من أحد.

٢. استخدم مؤيدوا فكرة اليد الخفية بطريقة ايجابية مشخصين يد السوق بـ(الكريمة والحكيمة وبعيدة النظر) والتي تحسن حياة الناس، بينما استخدمها معارضوها حينما ووصفوها بـ(اليد المرئية والمخيفة والنهّابة، والقدم الخفية التي تدوس على آمال الناس وتدمر أحلامهم)، ويعتقد بعض النقاد أن آدم سميث استخدم هذا المصطلح وتصورها كنكتة مثيرة للسخرية؛ فلم تكن مهمة بالنسبة لنظريته، بل ذهب بعظهم الآخر إلاّ أن الفكرة لم تكن سميثية اصلاً، وأن سميث استعارها من شكسبير وبرنارد ماندفيل.

ثانياً: المقترحات:

يصرّ الكثير من الاقتصاديين اليوم على إستقلالية الاقتصاد، على الرغم من أن فكرة اليد الخفية وما اتصل بها من شعار (دعه يعمل، دعه يمر) قد تراجع منذ أواخر القرن التاسع عشر، فلا يوجد الآن من علماء الاقتصاد المعتبرين من يدّعي أن السوق وحده يستطيع بصورة ذاتية ومستقلة من أن ينظم النشاط الاقتصادي، وفي نفس الوقت لا يوجد منهم أيضاً من يظن أن الدولة وحدها هي التي تستطيع فعل ذلك، بل أصبح علماء الاقتصاد يعلنون أن اقتصادهم هو اقتصاد مختلط؛ بحيث تمارس المؤسسات العامة والخاصة معاً نوعاً من التحكم في الاقتصاد.

الهوامش:

(١) باكولز، تود جي، ٢٠١٥م: أفكار جديدة من اقتصاديين راحلين، ترجمة: كوثر محمود محمد وحسين التلاوي، ط٢، كلمات للترجمة والنشر، القاهرة، ص٣٦- ٣٧.
(٢) التيجاني، عبدالقادر حامد، ٢٠١٣م: اليد الخفية للسوق وأبعادها الأخلاقية، مجلة التجديد، المجلد ١٧، العدد ٤، ص٤٧- ٤٨.
(٣) هيلبرونر، روبرت، ٢٠٠٢م (١٩٥٣): قادة الفكر الاقتصادي، ترجمة: الدكتور راشد البراوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص٤٥.
(٤) المصدر نفسه، ص٤٩.
(٥) باكولز، تود جي، مصدر سابق، ص٣٧.
(٦) جالبريت، جون كينيث، ٢٠٠٠م: تاريخ الفكر الاقتصادي، ترجمة: أحمد فؤاد بلبع، عالم المعرفة، الكويت، ص٧٤.
(٧) سميث، آدم، ٢٠١٦م: ثروة الأمم، نقله إلى العربية: وليد شحادة، م١، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ص٩.
(٨) باكولز، تود جي، مصدر سابق، ص٤٤- ٤٥.
(٩) المصدر نفسه، ص٣٨- ٣٩.
(١٠) سميث، آدم، مصدر سابق، ص٢٦.
(١١) سكويسين، مارك، ٢٠١٨م: الثلاثة الكبار في علم الاقتصاد (آدم سميث.. كارل ماركس.. جون ماينارد كينز)، ترجمة: مجدى عبدالهادى، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ص٣٨.
(١٢) سميث، آدم، ٢٠١٦م: ثروة الأمم، نقله إلى العربية: وليد شحادة، م٢، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ص٣٦.
(١٣) التيجاني، عبد القادر حامد، مصدر سابق، ص٤٨- ٤٩.
(١٤) المصدر نفسه، ص٤٩- ٥٠.
(١٥) سكويسين، مارك، مصدر سابق، ص٣٥- ٤٠.
(١٦) المصدر نفسه، ص٦١- ٦٢.
(١٧) بولانيي، كارل،٢٠٠٩م: التحول الكبير (الأصول السياسية والاقتصادية لزمننا المعاصر)، ترجمة: محمد فاضل طبّاخ، المنظمة العربية للترجمة، ص٦٦- ٦٧.
(١٨) التيجاني، عبد القادر حامد، مصدر سابق، ص٦١- ٦٢.
(١٩) المصدر نفسه، ص٦٧- ٦٨.

المصادر والمراجع:

١. باكولز، تود جي، ٢٠١٥، أفكار جديدة من اقتصاديين راحلين، ترجمة: كوثر محمود محمد وحسين التلاوي، ط٢، كلمات للترجمة والنشر، القاهرة.
٢. بولانيي، كارل،٢٠٠٩، التحول الكبير (الأصول السياسية والاقتصادية لزمننا المعاصر)، ترجمة: محمد فاضل طبّاخ، المنظمة العربية للترجمة.
٣. التيجاني، عبدالقادر حامد، ٢٠١٣، اليد الخفية للسوق وأبعادها الأخلاقية، مجلة التجديد، المجلد ١٧، العدد ٤.
٤. جالبريت، جون كينيث، ٢٠٠٠، تاريخ الفكر الاقتصادي، ترجمة: أحمد فؤاد بلبع، عالم المعرفة، الكويت.
٥. سكويسين، مارك، ٢٠١٨، الثلاثة الكبار في علم الاقتصاد (آدم سميث.. كارل ماركس.. جون ماينارد كينز)، ترجمة: مجدى عبدالهادى، المركز القومي للترجمة، القاهرة.
٦. سميث، آدم، ٢٠١٦، ثروة الأمم، نقله إلى العربية: وليد شحادة، م١، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق.
٧. سميث، آدم، ٢٠١٦، ثروة الأمم، نقله إلى العربية: وليد شحادة، م٢، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق.
٨. هيلبرونر، روبرت، ٢٠٠٢ (١٩٥٣)، قادة الفكر الاقتصادي، ترجمة: الدكتور راشد البراوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.